الأعلام الجغرافية فى رحلة ابن بطوطة :
تحديدها ، مناطق الظل فيها ، دلالاتها السياسية *

للأستاذ الدكتور عبد الهادي التازي

كان عدد الأعلام الجغرافية الذى تشتمل عليه رحلة ابن بطوطة يصل إلى سبعة وخمسين وتسعمائة عَلَم ، أى ما يعادل أكثر من سبعة فى المائة من الأعلام التى أوردها ياقوت فى معجم البلدان ، وبذلك نتصور جيّداً مدى قوة حافظة الرجل التي استطاعت أن تستوعب كل تلك الأسماء محركةً مشكولةً مضبوطة ، دون أن يكون بين يديه مرجع أو مصدر يستعين به لاستحضارها .

ولذلك اعتُبرت الرحلة المذكورة أغنى رحلة عربية وقفنا عليها فيما يتصل أيضا بحجم الأعلام الجغرافية التى تضمنتها، وإذا ما قارنا عدد هذه الأعلام بالأرقام التي وردت فى رحلة ماركو بولو البندقي فسيظهر لنا هذا قَزَماً أمام العملاق ابن بطوطة الطنجي !

ومن المهم أن أذكر منذ البداية أنني برجوعي إلى تحقيق تلك الأعلام فى الجهات التى كانت توجد فيها، سواء أكانت بالقارة الإفريقية، شرقها أو غربها، أو كانت بالجزيرة العربية وما يتصل بها، أو كانت بآسيا الصغرى أو الوسطى، أو بإيلْخانية المغول فى تبريز، أو بلاد السند والهند والصين ، إلى أوربا شرقيها وغربيها ... أقول : برجوعى إلى تلك الجهات للتأكد من ضبط الأسماء الجغرافية فى الرحلة كنت أكتشف ، فى صدر ما أكتشف ، أن تلك الجهات وتلك الأقاليم إنما تعتمد فيما تكتبه عن تاريخها على المعلومات التى قدمها ابن بطوطة عن تلك البلاد ! وهكذا كان ابن بطوطة حاضراً شاخصاً فى كل التآليف التى تحدثت عن المواقع الجغرافية التى مرَّ بها أو جرى ذكر لها فى مذكراته .

ومِن صدق الرجل وضبطه أنه متى لم تحتفظ ذاكرته باسم علم من الأعلام فإنه لا يتردد فى الاعتراف بأنه أُنسى ذلك

---

* ألقى هذا البحث فى الجلسة الثالثة صباح يوم الثلاثاء ٢٩ من شوال سنة ١٤١٦هـ الموافق ١٩ من مارس (آذار) سنة ١٩٩٦م .

الاسم وأحيانا كان يكتفي بالتعبير عن العلم الجغرافي بذكر كلمة"المرحلة"أو كلمة"المنهل" دون تعيين أو تحديد ...

ولابد أن أذكر هنا أن بعض رجال الاستشراق ممن اهتموا بالمحطات التى مر بها الرحالة المغربي من أمثال الأستاذ كابربيل فيران (G.FERRAND) وقفوا موقف المتشكك إزاء بعض المعلومات التى وردت فى الرحلة وخاصةً فى أقصى بلاد آسيا : مثلاً ... قَنْجَنْفُو بالصين ... لمجرد أنهم لم يعرفوا موقع المكان ... أو لم يجدوا له صدىً فى الأرشيف الذى بين أيديهم ، وهكذا فبالرغم من أن ابن بطوطة كان حريصاً على ضبط الأسماء بالحروف . أى أنه يقول بالنسبة للاسم (قَنْجَنْفُو) : إنها بفتح القاف وسكون النون وفتح الجيم وسكون النون الأخِيرة وضم الفاء والواو.

أقول بالرغم من ذلك الضبط الذى يعبر عن ثقةٍ بما يرويه الرحَّالة ، كنا نلاحظ إصراراً من بعض الذين تتبعوا رحلته مِن الذين كان عليهم ــ كما نعتقد ــ أن يُدخلوا فى حسابهم إمكانيةَ تبدل المواقع وتغيّر الأسماء ...

وإمعاناً فى البحث عن الوصول إلى الحقيقة لم أتردد فى الرحلة إلى الجهات التى كانت معنيةً بوجود تلك الأعلام الجغرافية على أرضها ، ولم أتردد كذلك فى مكاتبتها مهما نأت ، وأعترفُ بأنني استفدت من مركزي كرئيسٍ للمؤتمر العالمي للأعلام الجغرافية التابع للأمم المتحدة ، أقول استفدت من ذلك لأستفسر من هذا الوفد أو ذاك ، وهكذا. ففيما يتعلق بالأعلام فى الصين مثلاً توصلتُ من مصلحة الخرائط هناك إلى معلوماتٍ مدققةٍ حول مدينة الزيتون وصين كَلاَن وخان بالِق ...

وكنت أذكر فى هذه المتابعات قول ابن هانئ :

فى كلّ يومٍ أستزيد تجارباً
كمْ عالِمٍ بالشىء وهو يسائل

وأؤكد هنا أن أصعب عنصرٍ واجهني ، وأنا أحقق رحلة ابن بطوطة ، هو موضع الأعلام الجغرافية الذى كان يقف عقبةً كأداء فى طريقى بالرغم من كل النّجدات وكل الخرائط التى كانت تتناهى إليّ .

ولابد من القول : إن أسلافى ممن تولّوا نشر الرحلة بمصر فى منتصف جمادى الثانية 1388=1871 نقلاً عن الطبعة الباريسية، لم يولوا كبير اهتمام بوضع فهارس خاصة لتلك الأعلام .

وقد مرت على ذلك التاريخ تسعون سنة لتأتى دار عربية فى بيروت عام 1960 بفهرسٍ لهذه الأعلام لكن صاحب الدار لم يتوخ التمحيص الذى كان جديراً به ، بل إن تلك الدار حذفت الفقرات الخاصة بضبط الأعلام الجغرافية من صُلْب الرحلة

وأتى زملاء آخرون فاجتهدوا من أجل تقريب الرحلة إلى الناس فكان منهم من أتى بفهرسٍ عام لم يفرق فيه بين الأسماء الجغرافية والشخصيةِ وأسماءِ الجماعات والهيئات ... ولا أتحدث عما وقع فى بعض هذه الفهارس نفسها من تجاوزاتٍ واستروا‌خات .

وفى مقابلة هذا صدرت باللغات الأوربية فهارس للأعلام الجغرافية والشخصية كانت ــ على كل حال ــ أكثر ضبطاً من محاولات الأولين ولو أن بعض الفهارس الأجنبية أهملت أيضاً ذكر بعض الأعلام .

ومن غير أن أذكر هنا اسماً معيناً للسابقين واللاحقين ، أبادر إلى التّنويه بكل تلك الأعمال لأنها ساعدتني كثيراً على استجلاء بعض الحقيقة أو بالأحرى على الإدلاء بدلْوي حول هذا الموضوع .

وأعتقد أنه أصبح فى الإمكان اليوم أن نصنف الأعلام الجغرافية الواردة فى الرحلة ثلاثةً أقسام :

الأول: وهو القسم المعروف المضبوط المحدد ، ومن حسن الحظ أن نسبة هذا الصنف تصل التسعين فى المائة . مما لايزال الناس يرددون صداه إلى اليوم ، طبعاً مع الاختلاف فى البنايات والمنشآت التى تطورت مع الزمن ، وأحياناً مع التحريف فى الأسماء على ما نذكره فى اسم دهلى مثلاً .

الثاني: تسعة فى المائة من الأعلام التى أوشك الباحثون أن يصلوا فيها إلى الحلول التى تقارب الحقيقة ، أى أن بعضهم يرى أن هذا العلم يناسب الموقع الفلاني أو الفلاني،نظراً للتشابه فى الحروف أو نظراً لاعتبار المسافات المذكورة أو نظراً لحيثيات أخرى اقتضاها وجود ما قد

يشير إلى ظرفٍ أو حدثٍ يستزامن مع الأوصاف المقدمة من لدن الرحالة المغربي.

القسم الثالث هو الذى أطلقنا عليه مناطق الظل وهو الذى لم تصل فيه المحاولات المبذولة إلى نتيجةٍ مضبوطة،نظراً لخلو نصوص الرحلة من ذكر التواريخ ومن تقديم المزيد من التفاصيل الأمر الذى ضاعف من الاحتمالات والافتراضات حتى لَسمعنا من الوزير الأول الياباني السيد طاكو ميكي TAKOO MIKIفى خطاب رسمي عام 1976، أن ابن بطوطة يعد أول شخصيةٍ عربيةٍ زارت جزر اليابان فى القرن الرابع عشر. لقد قال ذلك أثناء مأدبة العشاء التى أقيمت فى طوكيو تكريما للأميرة المغربية لالة نزهة كريمة الملك محمد الخامس وزوجة الوزير الأول السيد أحمد عصمان الذى كان فى زيارة عملٍ لبلاد الصين [1].

وقد أتيتُ فى التعاليق التى زودتُ بها تحقيقى للرحلة بتفاصيل عن تلك الأعلام مما توصلت إلى تحديد موقعه اعتماداً على الأوصاف وعلى الخرائط وعلى إفادات من سبقنى إلى الاهتمام بها من أهل العلم عرباً وعجماً .

وأقتصر على ذكر بعض الأسماء على الترتيب الهجائي المغربي :

1-آبِ حياة أو النهر الأصفر بالصين .

2- أخندقان موقع بين المغرب الأوسط والأقصى .

3- البرهْنكار فى بلاد الملايو .

4-طوالِسى وعاصمتها كَيْلوكَرى ، بالمحيط الهادى .

5- مُلْ جاوة وعلاقتها بسُمطرة . . .

6-القَلْهُرَة بالأندلس : جبل طارق .

7-قَمارة : الكامبودج .

8-سمهل بناحية جبال الهِمَالايا .

9-يوفى أو نوفى أحد ممرات النيل . . .

والملاحظ أن بعض هذه الأسماء الجغرافية حتى الذى بلغ غموضه فيها الحد الكبير ما يزال إلى الآن موضع دراسةٍ عند أصحاب تلك المناطق ذاتها . وقد لمست فى (مانِيلاَّ) أن رجال البحث فى معهد الدّراسات الإسلامية بجامعة الفِلِبّين يقتنعون اقتناعاً كاملا بأن ابن بطوطة زار بلادهم ، وأنهم مدينُون فى حضارتهم إلى الذين حملوا الإسلام إلى ديارهم ، كما لمستُ فى الصين ، بكلية الآداب منها على الخصوص ، إصراراً زائداً على تصديق ابن

(١) د. التازى : التاريخ الدبلوماسى للمغرب ج 10ص 395 تعليق 32– يراجع نص الخطب المتبادلة فى الأرشيف اليابانى والمغربى

بطوطة ومحاولة الوصول إلى استكشاف مذكراته بوضع الخرائط ذات المقاييس الكبيرة ، وعلى نحو هذا الاهتمام فى أقصى آسيا ، لمستُ هذه العناية فى إفريقيا الشرقية : مَقْدَشَوْ ، مَنْبَسى ، كُلْوَا وفى إفريقيا الغربية : مالِى وبَرْنُو ، إيوّالأَتن

وإذا كانت الأعلام الجغرافية وضعت أساساً لتحديد المكان على أساس مّا من الأسس أو مناسبةٍ ما من المناسبات، فإن بعض تلك الأعلام لم يلبث أن أمسى رمزاً من الرموز التى تقصد إلى معنىً سياسى لاغِنى للمؤرخ عن الاستعانة به لمعرفة ما كان يروج فى دُنيا الأمس . وهنا نكتشف فى رحلة ابن بطوطة منحماً ثرياً لا حد له فيما يتصل بالتاريخ الوسيط ،، وقد اقتنعت فعلا بأن الرحلة تمثل تاريخاً لما أهمله التاريخ ،،! وينبغى أن أعيد للذاكرة أن بعض الخلافات الحُدُودية التى توجد اليوم بين أمةٍ وأمة،أو جهةٍ وجهة ، أحدنا نسمع فيها الاستدلال بما قاله ابن بطوطة قبل نحو من سبعة قرون ،،! أو ليس هذا شاهداً ناطقاً على الدلالات السياسية التى اكتسبها بعض الأعلام فى الرحلة ؟!

كثيراً ما يستعمل ابن بطوطة — وهو يتحدث عن علم جغرافى — عبارةً مثل قوله : وهذه أول عمالة بلاد كذا ،،، أو هذه آخر عمالة بلاد كذا ،،، وجدنا نظائر لهذا وابن بطوطة فى مصر ، وبالذات فى (قطيا) حيث كانت دولة المماليك تحتاط من جواسيس (إيلخانية التتر فى تبريز) التى كانت تسيطر على ما سُمّى عراق العجم والعرب .

ولاننسى ما يُوحى به اسم عيذاب مما تحدث به الرحالة المغربى نفسُه من علاقاتٍ متأرجحة بين إمارة البُجَاة فى الجنوب المصرى وبين مركز الحكم فى الشمال ،، وفى حديثه عن إفريقيا السوداء ، لا ننسى أنه كان يرسم الخريطةَ السياسية الإفريقية ،،، وفى حديثه عن قرية العُلا ببلاد باجزيرة يذكر أنها آخر نقطة يصلها النّصارى من بلاد الشام ولا يتعدّونها ،،، وعندما لذكر مدينة حَلَب التى لا يتعدى اسمها ثلاثة أحرف ، ينتصب أمامنا شخصُ أمير العرب مُهنّا بن عيس الذى أجار الأمير فرَاسْتُفُور الفارّ من لقمة الملك الناصر ،،، حيث ستؤدى المضاعفاتُ إلى التجاء الأميرين معاً إلى

بلاد التتر ... تاريخٌ سياسى كبيرٌ مثير منقوش على حَلَب :

نفيتَ عنك العُلا والمجْدَ والأدبا
وإن خُلِقْت لها–إن لم تزر حَلَبا !

ووجدنا نظائر هذا عند الحدود الهندية حيث انتظر ابن بطوطة الإذن فى (ملْتان) عاصمة السند ، ووجدنا مثل هذا وهو يذكر اسم مدينة (لَكْنَوْتى) العاصمة القديمة للبنْغال ... وهو فى (سِرْى لأنكَا) يتحدث عن المواقع الجغرافية التى تحتلها هذه الإمارة أو تلك مما يذكرنا فى جدور الخلافات التى نسمع بها اليوم عن التامول أو التاميل .. ووجدنا نظائر هذا وهو فى الصين ينتظر إذن الخان الأعظم فى الدخول إلى إقليمه .

وهو يتحدث عن هرمز من فلرس وعن قلْهات التابعة لَترْوَى قاعدةِ عُمان نستفيد أن الأمراء فى جهةٍ قد يكونون أمراء على الجهة الأخرى والعكس صحيح بمعنى أنه كان هناك مد وجزر فى الحكم بين ضفتَى الخليج !

وكان مما لازم الحديث عن العَلَم الجغرافى كمحطةٍ سياسية ما قرأناه عندما يذكر أرض الحجاز ... مكة والمدينة .

فهنا سنقف على جملةٍ من الأحداث التى اقترنت بوجود الأشراف الحَسنيين فى مكة والأشراف الحسنيين بالمدينة ، وعلاقات هؤلاء بمختلف الجهات التى تصنع القرار السياسى فى العالم الإسلامى : دولة المماليك بمصر والشام ، ومملكة بنى مرين فى المغرب ، ودولة بنى رسول فى (تَعِزّ) باليمن وإيلخانية العراق حيث السلطانُ أو سعيد بَهادُور تاسع إيلخانات مغول العراق وفارس .

وعندما يذكر قونية فى آسيا الصغرى نتصور العاصمة الكبرى لمملكة السلاجقة بما اشتملت عليه من إمارات كانت خاضعةً لُغَزاهم باستثناء أرمينيا وطَرابِيزون ومرْمَرة .

وعندما نذكر مدينة يزنيك (SMYRNE) نجد أن هذا الموقع يحمل معه دلالاتٍ سياسيةً عظيمةً تجلت فى الحِلْف الذى تم بين فرنسا وجنوة بمساعدة فرسان القديس يوحنا أصحاب جزيرة رُودِس لجعل حدٍّ لتحركات البطل عُمَر بك ابن محمد أَيدِين الذى كان يستهدف بقايا البيزنطيين فى اسطمبول والقسطنطينية العظمى ! وهكذا لم تعد كلمةُ (يزنيك)

تحمل معناها كمدينة ولكنها أمست علماً يجسد العلاقات بين الشرق والغرب !! وهنا ، فى آسيا الصغرى حيث تتراكم الأعلام الجغرافية ذات الدلالات السياسية الكبرى نجد (بِرْكِي) التى اشتهرت بمقاومتها للدولة البيزنطية ٠٠ ونجد بَرْصَى التى اجتمع فيها ابن بطوطة باختيار الدين أورْخان بك ابن عثمان الذى سيكون الشخصيةَ رقم اثنين فى الدولة العثمانية !

ونجد قصطمونية أعظمَ مدينةٍ فى آسيا الصغرى والتى اقترن تاريخها بتاريخ غازى شلبى المشهور بإغراق السفن البيزنطية !!

وذكر مدينة (السَّرَا) عاصمة السلطان أوزْبك خان الذى كان يحكم مناطق شاسعةً من آسيا الوسطى ، والذى عدَّه ابن بطوطة ضمن الملوك السبعة الذين كانوا أقطاب العالم آنذاك : ملك المغرب، ومصر ، والعراقين ، وتركستان ، والهند ، والصين . أقول ذكر (السَّرا) فى سائر قواميس الدنيا لا يمكن أن يمر دون ما ذكرٍ للمستودعات التجارية الأوربية التى عرفتها المنطقة .

وقد لفت ذكرُ ابن بطوطة لمدينةِ أطْرَار ولمدينة قَرَاقُرُم أنظارَ المؤرخين لحركة المغول والتتر ، لأنهما أى قَرَاقُرُم وأطْرَار كان لهما حضور قوى فى حياة التتر . فقد كانت قراقرم عاصمتَهم الأولى وهى التى قصدتْها سفارة البابا برئاسة جان دوبلان كاربان Jean Duplan Carpin الذى دوَّن مذكراته الرائعة عن التشريفات والمراسم التى عرف بها بلاط قَرَاقُرُم مما يذكر فيما حكاه ابن بطوطة عن تلك الأبَّهة العظيمة لسلطان العراقين أبى سَعيد بَهادور وسلطان القفْجَق أوزْبك خان ، وسلطان الهند محمد بن تُغْلقُ الذى يحكى ابنُ بطوطة عن سريره الأعظم ومبخرته الضخمة .

إن الذين يهمهم أن يعرفوا عن انطلاقة التتر نحو خوارزم وخراسان وما وراء النهر إلى بغداد عليهم أن يمرُّوا عبر مدينة أطرار .

ويُذكِّر اسمُ المدينة الهندية سِنْدابور باستنجاد ولى العهد فيها بجمال الدين أمير هِنَوَر التابع للسلطان هَرْيَب ٠٠٠ حيث نجد أن جمال الدين يلبى النداء ويصحبه

ابن بطوطة فى هذه الغراة التى انتهت إلى معركة بحريةٍ هائلة .

وينبغي أن نلتفت لابن بطوطة وهو فى طريق عودته من المشرق يتحدث عن تونس وتلمسان ، ونُقارن بين الوضع السياسى أولاً عندما كان فى اتجاهه نحو المشرق ، وثانياً عندما كان عائداً ، لنكتشف أنه، أى ابنَ بطوطة كان فى الأول يتحدث عن مغربٍ توزّعه قادةً متعددون ... وكان فى الثانية يتحدث عن مغربٍ ذى قيادةٍ واحدة ، كيف والسلطان أبو عنان هو الذى غطى المبلغ المالية لافتداء طرابلس من ربقة الجنويين الذين اجتاحوها !

وبالرغم من أن اهتمامنا ينصب على الدلالات السياسية للعلم الجغرافى إلا أن هذا لا يمنع من الإشارة إلى دلالات الاسم الجغرافى على نواحى أخرى كالعمل الإنسانى الذى يوحى به اسم العلايا عند ذكر ابن بطوطة لمنظمة الأخيَّة، وكالعمل الحضارى الذى تذكرنا به كلمة (مالديف) التى اعتنقت الإسلام بواسطة أحد المغاربة مما اعتُبر حدثاً كبيراً فى تاريخ العلاقات الحضارية بين الشرق الأقصى والمغرب الأقصى ! الأمر الذى سجل بمناسبة انخراطِ مالديف فى الأمم المتحدة يوم الخميس 1968/10/21 (1) !

ولابد فى ختام هذا الحديث عن الأعلام الجغرافيةِ أنْ لا نغفل عن بعض الهفوات التى وقع فيها ابن بطوطة كما وقع فيها سابقوه من الجغرافيين العَرَب ، ويتعلق الأمر باسم النيل الذى ــ إلى القرن الثامن الهجرى = الرابع عشر الميلادى ــ وجدْنا المصادر العربية تتحدث عن وجود أنهار لا صلة لها بنيل مصر ومع ذلك تحمل اسم النيل ! وها نحن مع ابن بطوطة الذى يذهب بعيداً فيذكر بصراحةٍ أن النيل ينحدر إلى بلاد النوبة من وادى النيجر الذى يُصر إصراراً على أنه النيل ! وقد غاب عنه اسم السفير ابن سُلَيم الأسوانى سفير الفاطميين لدى ملك النوبة والذى اهتم بمنابع النيل ، على نحو سَلام التَّرجمان الذى اهتم بسدّ يأجوج ومأجوج بتكليفٍ من العباسيين

وبعد ، فالذى أريد أن أخلص إليه أن الاهتمام بالعَلَم الجغرافى من قبل المجموعة الدولية يدخل فى صميم الحضارة الإنسانية، علاوةً على ما يعبر عنه من

(١) كان ذلك عندما ذكر أحدهُم فى معرض التنويه بالأمم المتحدة ، إن مالديف التى حصلت على استقلالها اليوم لم تكن بالأمس معروفة فى التاريخ ، فعلق على ذلك المندوب المغربى مذكراً بالتاريخ الأصيل لهذه الدولة !

مختلف التعابير ، والعَلَم الجغرافى فى دُنْيـــا العرب مليءٌ جداً بكل المعانى الســـامية ، ولذلك فإن الشعر العربى الحافل بذكـــر هذه الأعلام يجعل منه وثيقـــةً جغرافيـــةً تضاف إلى ما ألفّوه حول مواقع البـــلاد واختلاف الآفاق .

وسواء شعرنا أو لم نشـــعر فـــإن اقتصاد بلادنا وازدهاره يتوقف إلى حـــد كبير على مدى معرفتنا بمعالمنا جزءاً جـزءاً وبقعةً بقعة، وإن التاريخ لحياتنا الأدبيـــة ذاتِها لن يكون تاريخاً كاملاً إذا أهملنا هذا الكائن الذى نسميـــه"العَلَم الجغـــرافى "، وإن الاهتمام الذى تبديـــه الأكاديميـــات والمجامع العلمية فى السنين الأخيرة بالأعلام الجغرافية، تعبـــيراً له دلالتـــه على مدى إدراكها لما يؤديه العَلَم الجغرافى مـــن زادٍ معرفىّ للإنسان ، ومن هنـــا أصبحـــت المؤلفات التى لا تهتم بفـــهارس الأعـــلام الجغرافية مؤلفاتٍ قليلة الفائدة بـــل إنهـــا عرقلة فى طريق البحث العلمى .

وبمقدار ما ازداد الحـــرص علـــى الاعتناء بالعَلَم الجغرافى بمقدار ما ازدهـــر عِلْم الخريطة ، وقويت الدعوة إلى ضرورة احترام النطق بالعَلَم على نحو مـــا نطـــق به الأولـــون، حـــتى لا تلتبـــس علينـــا تبوك بنيويورك أو البيْت الأبيض بـــالدار البيضاء .!

عبد الهادى التازى

عضو المجمع

من المغرب